

جولته في أرضي اللبان والبخور



بقلم : الدكتور

مجدى العفيفي

٩٠ . الوثيقة

والنرحيل وقدر النخيل وللسماء

بعامها الأربعين في مسيرتها الحديثة التي توهجت من خلال المشروع العماني القومي الذي صاغه السلطان قابوس بن سعيد برؤية سياسية واقتصادية وثقافية تجاوزت مرحلة التجريب لتستقر على شاطئ العطاء الإنساني وقدمت احتفالياتها بتدشين العقد الخامس وسط موجات من الإنجازات التي جعلتها دولة عصرية بكل المقاييس تستند إلى جدار حضاري لا ينقض ولا ينبغي له . ولقد انطلقت إشارة البداية العمانية وبشارة التحولات من "صلالة" في محافظة ظفار جنوب السلطنة، واحتضنت هذه المدينة — على حد تعبير السلطان قابوس — أول شعاع من ذلك الفجر الصادق الذي شق بضيائه حجب الظلام، ومضي ينشر البشر،

على سفوح ظفار عاش نبي الله أيوب
في غناه وطول فترة ابتلائه وصبره وفي أرضها دفن
العثور على بقايا إرم ذات العماد

ويزرع الحياة، ويزيل آثار دهر طويل من الجمود أعاق حركة الوطن
وبدد طاقاته، فلم يعد قادراً على مواكبة العصر، ومجاراة الأمم . من
هذه الربوع بدأت المسيرة المباركة أولى خطواتها في مضمار البناء
والتعمير، والتحديث والتطوير، مفعمة بالعزم والأمل، متوهجة بالجد
والعمل، غايتها الكبرى بناء دولة عصرية، وهدفها الأسمى تحقيق
الأمن والرخاء والازدهار .

لماذا كانت البداية من صلالة؟

وماذا تمثل هذه المنطقة؟

وما عمقها الحضاري، في ضوء حداثتها الحاضرة؟

وماذا يقول العلم عن احتوائها لقوم عاد وثمود ومدينة إرم ذات العماد
التي لم يخلق مثلها في البلاد؟
وإلى أي حد تبوح الآثار بالكثير من الأسرار؟

أما قبل ..

ساعة أن نهبط في الغلاف الأرضي لظفار، إذا كنت محلّقاً بالطائرة أو
قادمًا بالسيارة، فإذا ببريق تلامسه عيناك في النظرة الأولى، والتي تستدعي منك
أن تتمهل لتتأمل فتتجمل، إذا كنت من الكاشفين للجمال، والمكتشفين للأناقة،
والعارفين بالأسرار .

ثمة نور حضاري لا يزال حياً، ومصدره أصداً تلاقي حضارات الشرق
القديم، على شفاه هذه المدينة، يناديك إذا كنت من الباحثين عن الحقيقة،
ويناجيك إذا كنت قد جئت لقضاء بعض من الوقت، بعيداً عن توحش

التكنولوجيا العصبية، لتلتقط أنفاسك على صدر الطبيعة المغلفة بجماليات لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا، والمغلقة في أكمام تتفتح رويداً رويداً، وبشرورها هي، ولكن عليك أن تحدد خطواتك فيه، أتريد التاريخ وشواهد؟ أم الجغرافيا بمشاهدها؟ أم الحداثة بتداعياتها؟ أم الجمال بجلاله؟ أم الإنسان بظلاله، وهو الأصل والفصل والوصل؟ أم أنك تريد كل أولئك؟ .

وأبدأ . . لا يمكن لهذه العطاءات الربانية، في هذه القطعة من أرض الله الواسعة، إلا أن تكون رسائل تشف عن الماوراء، يتلقاها من يسبح في الملك، ويطوف في الملكوت، ولا بد أن تأخذها على محمل التأويل .

الجبال الصلدة التي هي في الأصل تمر مر السحاب، يراها الفؤاد وقد زالت عنها الوحشة، واحتجب عنها التوحش، لتصبح مستأنسة باخضرارها واتساعها وامتدادها وإغراءاتها، حتى تخفض جناحها للزائر في روعة ألوانها الخضراء، وعيون الماء المناسبة في نافورات وتشكيلات تلقائية يحنو عليها البحر حين يخشع هيجانه وتستلقي موجاته على الشواطئ، فتتحدث ثم تتحدر ثم تستسلم وتسلم .

رذاذ المطر اللاعصي يتحول إلى خيط يربطك بالماوراء، يجعلك في حوارات متصلة ومتقطعة، تحتويك بأنك موصول بأسباب السماء، لست وحدك هذا مؤكد .

أشجار اللبان، وهامات النارجيل، وقدود النخيل تشمخ في اللامحدود، سامقة هي، شاهقة هي، مثمرة هي، تسديك طبياتها جنية، وهي أكبر من مجرد ثمار يانعة، وفواكه مما تتخير، إنها رموز طبيعية، وعناوين تاريخية وسلاسل حضارية، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا للمنعم البديع ذي الجلال والإكرام .

الجدور من الواقع المنظور

"لا نمو بدون جذور" هذه حقيقة، كما جاء في حديث السلطان قابوس بن سعيد لدورية "ميدل إيست" - لندن ١٩٩٤ - . والبحث عن الجذور يكشف عن كنوز معرفية ونبوءة مخبوء في ضمير الغيب، تطفئ الكثير من علامات الاستفهام، وتهدئ من روع علامات التعجب بما يتكشف من أسرار تومض وتختفي، وبما ينكشف من إصرار على التمديد الحضاري والامتداد في الحاضر . والجذور هي أحد المفاتيح الكبرى لعمان الحديثة، وقد كانت مستغلقة على الانفتاح بعضاً من الوقت . ولنبدأ بـ (الجذور) لكن العودة إلى الجذور، تنطلق من الواقع المنظور، لاسيما أن التداخل في الأزمنة يشكل نقطة ارتكاز في الرؤية العمانية المعاصرة . لا يستغرقنا التاريخ في حد ذاته، بقدر ما تعيننا دلالاته، وصولاً إلى اللحظة الحاضرة، والتي بدورها تتبادل الكشف معه، تأثيراً وتأثراً، في علاقة عضوية ذات أنسجة متداخلة، وخلايا متشابكة . وفي هذا السياق يؤكد علماء التاريخ، أننا ندرس الماضي لفهم الحاضر، وندرس الحاضر لنستطيع توجيه المستقبل، فالتاريخ هو سياسة الماضي، وعلى ضوء هذا القول يكون الحاضر جزءاً منه، لأنه نتيجة وثمره للسياسات الماضية، وعلى أساس من فهم الحاضر وسياساته واتجاهاته، يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته . وهذا ما يسمى بالتخطيط للمستقبل . وعندما يتم التخطيط لبلد ما خلال الخمسين سنة القادمة، فإن ذلك يعتبر مقدماً تاريخ هذه الخمسين سنة القادمة أو، على الأقل، رسم مسار التاريخ القادم خلال هذه الفترة كما يراود له أن يكون . (كما يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه "الحضارة"، ص٧١، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٨) لكن التاريخ وحده لا يكفي، إذ أن الجغرافيا هي صانعة التاريخ، وهي الحقيقة الثابتة في كل التواريخ . يتغير الزمن بتدفق تيار التحول

الإنساني، فتصير وقائعه من حال إلى حال وتستحيل قراءة التاريخ . أي تاريخ بمعزل عن الأثر الحاكم لعامل الجغرافيا في صناعة وقائعه، على حد تعبير (محمد حسنين هيكل، مصر والقرن الحادي والعشرون، ص ٥، دار الشروق، القاهرة) . ولقد أراد جلالة السلطان قابوس بن سعيد، أن يدخل عمان إلى قلب التاريخ المعاصر، الذي توارت خلف أستاره بعضاً من الوقت بفعل ظروف خارجة عن الإرادة، ليعيدها أفضل من سيرتها الأولى، وبروح العصر .

كان السلطان قابوس ومنذ البداية، واعياً وعياً فلسفياً لدور التاريخ وأهميته وحركته كعنصر فعال في بناء الشخصية العمانية، وتعميق الشعور بالانتماء الوطني، والربط بين الماضي والحاضر والمستقبل في منظومة متناسقة، فأراد أن يزرع في نفوس العمانيين الثقة والأمل، وينزع منها الخوف والجزع، والإحساس بتناثر الذات وتمزقها . إنه يقول : كان لزاماً علينا أن نبتدئ من الأساس ومن واقعنا، وهذا الأساس هو الشعب في عمان وقد سلكنا مختارين أصعب السبل لنخرج به من عزلته ونأخذه بعيداً إلى طريق العزة والكرامة، وفي نفس الوقت تحمّلنا مسئولية حمايته من التمزق والضياع، وإحياء حضارته، واستعادة أمجاده، وربطه ربطاً وثيقاً بالأرض، ليشعر بعمق الوطنية، ومدى التجاذب بين الإنسان العماني وبين أرض عمان الطيبة . (خطب السلطان قابوس بن سعيد، ١٨ نوفمبر ١٩٧٢م) .

ظفار في عيون المؤرخين

يذكر أبو الجغرافيين "الإدريسي" أن ظفار كانت محط أنظار الغزاة . وقد تعرضت عام ١٢٦٥م لغزو دمرها ثم أعيد بناؤها باسم "المنصورة"، وهي المدينة التي عرفت في العصور الإسلامية باسم "البليد" كما يذكر المؤرخ العماني المعروف ابن رزيق، لكن المسألة في نظر المحللين ليست مسألة احتلال أو

تبعية، إنما، كما هو معروف، فإن أية بؤرة غنية وثرية وسط منطقة صحراوية قاحلة، تعد مصدراً للأطماع .

ويتعرض الرحالة الشهير "ماركو بولو" في عام ١٢٨٥هـ لازدهار ظفار وثرواتها، ويقول أنه كانت هناك حركة ملاحية بينها وبين الهند، وكان التجار يحصلون على أعداد كبيرة من الجياد العربية، ويحققون أرباحاً وفيرة، وكانت المدينة تتبعها قرى عديدة، وهناك يتم إنتاج الكثير من اللبان الأبيض .

والرحالة العربي المعروف "ابن بطوطة" يروي وصفاً لظفار في القرن الرابع عشر فيقول : إن أسواقها من أكبر الأسواق وكانت مشهورة بالأسمك والفواكه . ويقول عن أهلها إنهم "متواضعون، مهذبون، مستقيمون، ودودون للغرباء، ثيابهم من القطن المستورد وهم يربطون "سارونج" على وسطهم بدلاً من السروال، ويستحمون عدة مرات في اليوم الواحد وفيها الكثير من المساجد، ويكل مسجد مقاصير خاصة بالوضوء، ووصفها "ويندل فيليبس" بأنها "جنة المناظر الخضراء" .

ويقول "برترام توماس" عن رحلته من صحار عبر الربع الخالي إلى الإمارات عام ١٩١٠م والذي ضمنها كتابه "البلاد السعيدة" : "إذا كانت هناك منطقة في شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية، (يقصد البلاد السعيدة) إذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية . فهي بحق المنطقة التي تسمى ظفار. والتي تشكل في مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التي تفتقرش المرتفعات الجبلية المطلة على البحر، والجداول الرقراقة والحقول السندسية والسهول التي ترصع أديمها الأشجار والنباتات والأعشاب" . (فاروق خورشيد، في بلاد السندباد، ص٤٢٦، دار الهلال ١٩٨٦م) .

والاخصرار هبة طبيعية في صلالة وظفار كلها، وما "مهرجان الخريف" الذي تقيمه محافظة ظفار كل عام، إلا استثمار عصري لهذه المنحة الإلهية

التي اختص الله تعالى بها ظفار دون سائر مناطق الجزيرة العربية والمنطقة في عمومها، واستطاعت صلالة أن تجعل مهرجان الخريف قادراً على أن يسوق نفسه بنفسه، بما تتميز به الطبيعة في صلالة، في هذه الآونة بالذات حيث تختلف عن أية منطقة في الخليج ببرودة أجوائها وهطول الأمطار فيها، واللون الأخضر الذي يكسوها ويحولها إلى روضة تسر الناظرين، في وقت تعاني فيه المنطقة من الطقس الحار اللافت، وهذه هبة من الله تعالى للمنطقة الجنوبية في سلطنة عمان .

عطر الشرق وجماليات المدنية

صلالة لها في التاريخ مكانة عالية، ولها على الجغرافيا مكان مميز، هي كنز الجمال الطبيعي الجميل . حباها الله تعالى هبات كثيرة وثرية، فانعكست ظلالها على الإنسان والزمان والمكان في هذا الجناح الجنوبي من عمان الذي يجمع بين عطر الشرق العريق وجماليات المدنية الحديثة، فاتخذت صلالة خصوصية غير مألوفة . هذه الخصوصية جعلت الكتاب المعاصرين يصفونها بأنها جنة المناظر الخضراء، ليتواصلوا مع المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى في رؤيتهم لهذه المنطقة العمانية ذات العمق التاريخي والحضاري حيث ساهمت هذه المنطقة في تشكيل مساحات واسعة من الحضارة العمانية في العصور القديمة والوسيطة كما شاركت بدور ملحوظ في تاريخ عمان المعاصر لاسيما القريب منه . فمن صلالة انطلق نداء النهضة جامعاً كل أبناء عمان داعياً إياهم للانطلاقة الكبرى نحو التغيير معلناً للعالم أجمع "فاتحة عهد جديد" غير مجرى الحياة في عمان .

يروى حفيظ الغساني في مذكراته حين أوشكت شمس يوم الخميس الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠م على الغروب فإذا الناس في شوارع صلالة يهرولون

في كل اتجاه هاتفين "قابوس حكم . . قابوس حكم" وبعد دقائق انفتح باب "قصر الحصن" لتندفع جماهير الناس إلى الداخل يبائعون جلالة السلطان قابوس وما هي إلا ساعات قليلة حتى طار النبا الجديد إلى كل أنحاء الدنيا، وعمت الفرحة كل جنبات عمان من أقصاها إلى أقصاها، وبدأت معركة البناء والتعمير في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على صعيد العمل الداخلي وعلى المستوى الخارجي . هذه هي صلالة التي تسكن في حنايا قلب واحد من أبنائها، هو شاهد على التحولات العمانية الكبرى، وعلى عصر من التنوير والتعمير والتطوير، تتعاطف فيها مشاهد البناء والرخاء والوفاء، يتجاور السهل والجبل، تتحاور الصحراء والاضرار، يتعالى هدير المصانع وتلقائية الحرف اليدوية، ويتناغم حداء سفين الصحراء مع الأمواج حين تجوبها أشعة الصواري، وتتمازج أصالة المأثورات التقليدية مع حداثة الفنون .

روحانيات النبي داود

لحظات اختراق لأعنف الجبال في ظفار طريق عملاق لا يعبأ بالصخور، إنما ينساب، ولك أن تتخيل مدى الجهد والمال الذي بذل من أجل تعبیده، تظل السيارة تعانق الطريق مثلما تعانق العيون مساحات الخضرة الممدودة، وتستقبل رذاذ المطر الحاني ووشوشات النسيم الكريم في عطاءاته، وهمهمات الهواء النقي في هفوفاته، واحتضان الشواطئ لموجات البحر التي تهفو إلى الراحة هي الأخرى . تصاعد السيارة، لتخشع وهي تدنو من ذلك المكان العلوي . . لماذا؟ يرق جبل "أتين" الذي يتلطف سهلاً، يدثر المكان بشيء من الرهبة، ويشي بروح ديني ينفخ الزائر بمسحة من الشجن، أشجار كثيفة، دوحة من الجمال، وهالة من الجلال تنبعث من قبر نبي الله "أيوب" عليه

السلام . الجسد مسدى متمدن في ضريح بسيط لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً .
تتناثر حواليه بعض الكتب وحملات للقراءة، وآيات كريمة تشرق في جنبات
المكان، وأضواء خفية خفيفة، ودعوات تبتهل بها نفوس الزائرين وتتجلى في
النفس القيمة الكبرى لصاحب المكان عليه السلام (قيمة الصبر والتحدي) .

"وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" . تتجلى
هذه الآية الكريمة عنواناً لهذا المشهد، ويدخل معنا فيه أيضاً الكاتب فاروق
خورشيد، الذي زار هذا المكان وقدم رؤيته وشهادته وانطباعاته وأحاسيسه إزاء
المكان وصاحبه، في صورة من الأدبيات الفنية، وهو الذي قدم منذ ربيع قرن
مسرحيته عن النبي أيوب وتتبع شخصيته في كل المصادر واستهواه موقف
التحدي الذي وقفه أيوب من رهان الرب مع الشيطان حين ذكر الشيطان أن
أيوب عبد صالح لأنه غني، ولأن الله أعطاه كل ما يشكره عليه ويعبده من
أجله، فكان الابتلاء والامتحان وكان التصدي والتحدي، ثم كان الصبر
والنجاح والانتصار .

(قال الرب : لي عبد صالح في أرض "عوص" تبرا وخلص، صافية نفسه،
فكان نعم العبد الصالح . قال إبليس : ما عبدك إلا لنعمك عليه فأطلق يدي
أدمر ما أنعمت به، ستراه يكفر . قال الرب : فأطلق يدك ولن يكفر أيوب،
فأيوب صابر صالح .

وانقضت الصواعق تحرق مخازن الغلال وأشجار الفاكهة ومزارع الكروم
والخضرة، وصبر أيوب، ورفع كفيه ضارعاً للرب وقال : أنت أعطيت، وأنت
أخذت، والحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت، تقدس اسمك وتقدس آلاؤك .
واهتزت الأرض زلازل فدمرت المساكن العامرة، وماتت تحت أنقاضها الأبناء
والبنات قرة العين وأمل الفؤاد، ومعنى أن يكون للإنسان وجود على الأرض .
انهارت الجدران الصلبة، فتحطمت تحتها الأجساد الرخوة، وضاع معنى

الوجود نفسه، حين ضاع أبناء أيوب حين رفع كفيه للرب وقال : ما كان الأولاد إلا منحة منك، فحين جاءوا كانوا درة نعمتك . وحين ذهبوا كانوا اختبار طاعتك . فالحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت . تقدس اسمك وتقدس آلؤك . وهبت الريح الصرصر السموم، تحمل الجراثيم والموت، وانقلبت الماشية ترفع أقدامها مستسلمة إلى الموت المخيف المنتشر العاتي، ألف ألف بقرة، ألف ألف ناقة، ألف ألف كبش ونعجة وعنزة، اجتاحتها الموت الزاحف، وشرعت عيون صماء إلى السماء، وتعفنت جثث كانت تحمل الثروة والجاه، وضاعت الثروة وضاع الجاه . ورفع كفيه ضارعاً للرب وقال : ما الأبقار والأغنام والإبل إلا رمز رضاك . فإن منحته لي فالحمد لك، وإن أخذته مني فالحمد لك . يرتفع الإنسان وسط الناس بما أعطيت، وينخفض قدره بما أخذت . ولكن الإنسان أمامك هو هو . الحب لك، والشكر لك، والرضا والقناعة بما أعطيت وأخذت . أنت أعطيت، وأنت أخذت، والحمد لك . تقدس اسمك، وتقدس آلؤك . وزحف العفن إلى الجسد فشاخ بناؤه، انحلت الأعضاء والعظم وهن، والقروح ملأت الجلد واللحم، وتقيحت حتى نفرت الزوج والصحاب، الطعام يحمل إليّ عذابي، فلا آكله خوف التعاسة والألم، خبزي عذابي، وحنطتي شقائي، وجرة الماء هول يمزق جسدي، والدود يقفز مني إيذاً بأن الجسد ضاع، ولا نهاية لهذا العذاب المقيم . من أنا حتى ترزح بعذابك عليّ . من أنا حتى تأكلني بقوتك . من أنا . وما أنا يا رب الوجود العظيم . تقدس اسمك وتقدس آلؤك . وهب أهل عوص، وقالوا كفر أيوب، فحق عليه النفي من الأرض النقية التي لا تعرف إلا الصالحين، ملعون مطرود هو، مشرد، فقد رفع صوته على الرب، ورفع أصبعه إلى السماء . وضحك إبليس ضحكة الانتصار وقال : ضاع أيوب وكفر، حين ضاعت منه نعمتك وسلبت عنه عطايك . تقدس الرب وعلا، فكلمة الرب هي العليا، أيوب عبد صالح، وما كلمات أيوب إلا الصدق، فما كفر وما عصى، وإنما اشتكى وتضرع، غفر الله لأيوب،

فارفع نعمتك عنه، فقد حوته الرحمة الكبرى والغفران الأعظم، وما عصى .
لبيك نبي الله لبيك . ثم لبيك نبي الله لبيك .

إن هذه الأرض هي أرض "عوص" التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس،
هذه أرض توحى وحدها معنى الصراع إلى القمة، وتثبت للإنسان معنى الخلود
في مواجهة القمة، فهنا يلتقي الإنسان بالقمة، هنا يعرف الإنسان معنى
التحدي، وهنا ينطلق الإنسان . فهنا معنى الحب المطلق، وهنا العذاب
المطلق، ثم هنا الإيمان المطلق، أنا أحس فأنا أفهم، أنا والأرض اتحدنا، كما
اتحد بها من قبل أيوب، فأخرج كلماته، وسرقها وسرقه كله من سرقوا تراثنا
وادعوه لأنفسهم . فأيوب من هذه الأرض، وهذه أرض "عوص"، أنبتت هذه
الرؤية العظيمة المتسعة للحب، كما امتدت عظيمة متسعة خضراء .

وبعد أشهر من هذه الزيارة كان الكاتب فاروق خورشيد في صنعاء، وفي
منزل الدكتور عبد الكريم الإيراني، كانا يتحدثان عن سرقات اليهود لتراثنا
كله . وحكى له هذه التجربة الروحية الفذة، وإذا بالدكتور يوسف عبد الله
رئيس قسم الآثار بكلية آداب صنعاء، وعميدها السابق يقاطعه قائلاً : "عجيب
ما تحكي لقد زار المستشرق (بري) عالم الآثار البريطاني، المنطقة الجنوبية
كلها، ووقف عند الدلائل العلمية والحفائر التي تؤكد ما ذهبت إليه بتجربتك
الصوفية هذه، وألف كتاباً عن هذه المنطقة أسماه "أرض عوص" (فاروق
خورشيد في بلاد السندباد، ص ٤٢٦، دار الهلال ١٩٨٦) .

أعلى من الذهب والنفط

وفي هذه الأجواء تتجلى شجرة اللبان، التي تتجاوز مجرد كونها شجرة
نباتية، لتصبح رمزاً كبيراً تاريخياً واجتماعياً وجغرافياً وحضارياً، تتميز به
هذه المنطقة من العالم . وكما جرت محاولات علمية لاستزراع هذه الشجرة في

مناطق أخرى غير صلالة، لكنها باءت بالفشل . في ظلال شجرة اللبان تتوارد إلى الخاطر، أشياء كثيرة، ومفاتيح للفهم، ومحاولات لكشف الأسرار وإيجاد التناغم بين العلاقات وتجارب لفك الرموز . على مرأى من البصر، وفي سياق الحديث عن أسرار اللبان، تحدثك آثار مدينة "خور روري" أو "سمهرم" التي تعود إلى فترة الألف الأولى قبل الميلاد، حيث تتمتع هذه المدينة بفن معماري جميل من الحجر الجيري، وهي تقع على الشاطئ الشرقي لشرم صغير على الساحل، وعلى بضعة كيلومترات إلى الشرق من سهل صلالة، والمدينة محصنة بسور من الحجارة المتراسة بصورة محكمة، وقد تم الكشف فيها عن خمسة أحجار كتب عليها بالأبجدية العربية الجنوبية، وتصف تأسيسها، وأنها بنيت لهدف رئيسي وهو تأكيد السيطرة على تجارة اللبان والبخور الذي يجمع فيها ويصدر إلى الخارج، كما تم الكشف عن آثار معبد قديم شديد في وسط الجانب الشمالي للمدينة، وقد عثر على جدرانه الثلاثة مع مذبحين، ووجد نحت لصورة ثور على أحد المذبحين، وهذا يدل في نظر العلماء على أن الإله الذي كان يعبد في المعبد هو إله القمر، لأن الثور يمثل في الديانة الحميرية إله القمر، كما وجد حول المذبحين آثار رماد للقرايين التي كانت تقدم عليها، وتشتمل على بقايا عظام الأسماك ومواش وطيور كالديجاج، وأيضاً بقايا قليلة من اللبان . ومن الأثرية التي تم العثور عليها في هذا الموقع تمثال برونزي صغير لفتاة هندية تعزف على الناي . وتكمن أهمية التمثال في وجوده في الموقع حيث يعتبر دليلاً على وجود علاقات تجارية بين الهند والجزيرة العربية . كما عثر أيضاً في نفس الموقع على مجموعة من القطع النقدية البرونزية البالغ عددها أربع عشرة قطعة، بالإضافة إلى جرس برونزي يحمل اسم إله المدينة . ولما كان اللبان السبب الأكثر بروزاً عبر التاريخ في شهرة محافظة ظفار، فقد شغلت ظفار مساحة حضارية هامة في التاريخ القديم، بحكم كونها مصدراً أساسياً لهذه المادة إلى جانب الصمغ حيث كانا في مقدمة السلع التي حظيت

باهتمام كبير في تجارة العصور القديمة مما أثار اهتمام المؤرخين الأوائل منذ عام ٤٠٠ قبل الميلاد، بداية من "هيرودوت" ثم "بيليني" و "بطليموس" وانتهاء بـ "استرابو" و "ديودورس" وجميعهم قد تركوا انطباعاً عن أهمية اللبان والصمغ في تجارة العالم القديم، وأن الطلب على اللبان كان لا يضاويه الطلب على أية سلعة أخرى . وقد توصلت الدراسات المسحية التي أجريت في ظفار، إلى أن اللبان كان ينقل بالبر والبحر لأنحاء متفرقة من العالم القديم، وكان ميناء راس فرتاك (جبال القمر) هو الميناء الذي يجمع منه المحصول للتصدير إلى اليمن، ونحو مناطق متفرقة أخرى من آسيا عن طريق ميناء (عدن)، أما الطريق البري فقد كان يبدأ من غرب ظفار عن طريق (نجد) إلى جنوب الجزيرة العربية، ثم شمالاً إلى (نجران) وحتى (غزة) .

ولم يكتفِ العمانيون بتصدير اللبان وإنما صنعوا منه البخور بعد إضافة الشحوم إليه، نظراً لحاجة المجتمعات القديمة إليه في الطقوس الدينية، وفي العلاج والتطبيب . وشكل هذا المنتج أهمية كبيرة في حركة التجارة خلال العصر الحجري الحديث (عمان في التاريخ، ص ١٠٠) ونقرأ عن هذه البلاد - كما جاء في سفر التكوين - حدد الرب مناطق العالم ذاكراً أنها تبدأ شرقاً من جبل سفار (أي ظفار) وإلى هذه البلاد جاء المصريون القدماء، بحثاً عن اللبان ليستعملوه في تحنيط فراعنتهم، وربما كانت أعمدة النبي سليمان مدفونة بمكان ما في هذه المنطقة، هذا إذا لم تكن ظفار هي نفس الجنة التي ورد ذكرها في التوراة، والسوق الثقيلة لتجارة العاج وريش الطاووس قديماً .

يعتبر الباحث عبد القادر بن سالم الغساني من أول الباحثين في هذا المجال بكتابه (ظفار أرض اللبان) ويذكر من تاريخ الإسكندر الأكبر أنه أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور لإحراقها للآلهة تقرباً إليها، ثم يذكر عدداً من الحوادث تؤكد وجود علاقات منظمة بين البطالة وبين بلاد

اللبان والبخور، وخيبة هذه الحملات وتعثرها إذ يقول : "لقد كان البخور أو اللبان رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة . في ذلك العهد كان سعره يساوي سعر كل من الذهب والبتروول في أيامنا هذه . ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه والملوك والأثرياء، لحرقة في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم" .

ويقول عبد القادر الغساني حول طرق التجارة : "وكان اللبان من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون، تاجروا بتصديره إلى بلاد الشام ومصر والعراق، وقد أشير في التوراة إلى قوافل سبأ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مختربة العربية الغربية، إلى فلسطين فتبيع ما تحمله من سلع هناك، وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين" .

وقد سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق، بذلت جهدها لبطس سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها، وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية إلى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية، وإلى الموانئ والمرافئ التي تتاجر مع أفريقيا والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها فحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية وبلطت بعض المواقع فيها لتقاوم السيول والأمطار وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ويذكر الغساني أن طريق اللبان هذا كان يصل إلى غزة، وأن أول من استخدمه كانت الملكة بلقيس في رحلتها إلى الملك سليمان . ورغم تداخل الأسطورة بالحقيقة فإن الطريق البري حقيقة واقعة زادت من هذه الروابط التي مزجت حضارات

الجزيرة بعضها ببعض كما مزجت العطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الشمال من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده، بالعطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الجنوب من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده (عبد القادر بن سالم الغساني، في ظفار أرض اللبان، مسقط ١٩٨٤) وقد ارتبطت هذه المنطقة منذ القدم بالمعنى الديني الموحد الذي هو جوهر الديانات السماوية التي نزلت بأرض هذه المنطقة هادية ومبشرة ومقدمة المعاني الحضارية في دفعات متتالية تبدأ باليهودية وتنتهي بالإسلام، كما أنها ارتبطت بما سبق هذه الديانات من محاولات إنسانية لمعرفة الله وعبادته عبادة قاصرة، ولكنها جادة في محاولات الاهتداء، إلى معنى الوجود وروح الحق ومن هنا كان الارتباط بين مصر الفرعونية وأرض اللبان ومعنى هذا علاقات مستمرة في التجارة والثقافة معاً، وعلاقات متبادلة في المصالح والأفكار معاً .

صوته لا يزال حياً !

حديث الآثار هو حديث مثير، بشفافيته وغموضه، يغري على البحث والتقصي ويستدعي التأمل والتمهل، ويدعو إلى التعجب والإعجاب، فأنت مع التاريخ بأسراره وآثاره، وحركاته وسكناته، وهيبته وحكمته، وبمصاحبة الجغرافيا السياسية والطبيعية بشواهدا ومشاهدا، إذ لا يمكن إلا أن يقترن التاريخ بالجغرافيا بالناس والمجتمع . تتعمق صلاته ببعدها التاريخي وشواهدا العريقة وآثارها العتيقة مثل (البليد) هذا الموقع الأثري الذي تحيط به المياه مع جدار كامل بأبواب وسرايب ويوجد فيه فلجان متوازيان يجريان باتجاه البحر، وهناك مبان تاريخية تضم مسجداً وقصراً ومنازل ومزارات ثم (متحف صلالة) الذي يشكل جزءاً من التراث القومي، ويضم مقتنيات من الأعمال الأدبية وأحجاراً عليها كتابات قديمة، كما توجد من بين المقتنيات

مجموعة من العملات ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، إضافة إلى فخاريات تعود إلى العصر الوسيط، ومخطوطات ووثائق تاريخية، وهناك قبر النبي أيوب، ويقع داخل مبنى صغير تزينه قبة فوق سهل (أتين) تصل إليه عبر طريق عملاق معبد، تحيط به الروابي الخضراء، وتنتشر حواليه البساتين وفيها (سمهرم) التي تشتهر بمينائها البحري الذي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد أسفرت أعمال الحفر والتنقيبات عن وجود عملات ومخطوطات باللغة العربية، كما تضم (خور روري) الذي يشتهر بمناظره الطبيعية، وبه ضريح ابن علي، وميناء صلالة، وكثير من الحدائق والمطاعم، وحصن مرباط، وشاطئ المغسيل المشهور بنافورات المياه الطبيعية، وريخوت بمنعطفاتها، ثم (شصر. إرم) التي يعتقد بأنها موقع المدينة الضائعة (إرم ذات العماد) وتتمثل بمناظر رائعة لشلالات المياه والبحيرات والجبال والكهوف والحياة البرية والخضرة التي تغري السائح إغراءً طبيعياً لزيارتها.

حتى لا تختلط الحقائق بالأساطير

لا تنظر الرؤية العمانية إلى رصيدها الأثري على أنه فقط حفريات، وشواهد على الماضي البعيد، ومشاهد من التاريخ العريق بل هي أبعد من ذلك، بمعنى أنها استثمار سياحي على المدى الطويل - إذا جاز التعبير - وعناوين حاضرة محملة بحضارة دالة على التواصل والاستمرار.

المصدر الأساسي هو فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد، وفي بعده الأثري والثقافي والتاريخي على وجه التحديد، يوم أصدر التعليمات بتشكيل لجنة وطنية للإشراف على قسم الآثار في السلطنة، يرأسها معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار جلالة السلطان للشئون الثقافية، وزير الإعلام السابق.

تلكم كانت النواة العلمية، لعمل يتدثر برداء العلم، ورؤية تتخذ من البحث منهجاً وأسلوباً، وصولاً إلى نتائج دقيقة، خاصة أن الحقائق تختلط بالأساطير، وإن كانت الأساطير رموزاً تعبيرية وتصويرية إزاء مواقف من الحياة والكون . وعلى مستوى الخريطة الأثرية للسلطنة، تجلت المعالم والملاح في أكثر من ٥٠٠ قلعة وحصن وبرج، تنتشر في كل جنبات عمان، بدأت كتحصينات عسكرية واستحكامات حربية، وأصبحت الآن تشكيلات جمالية ووحدات معمارية يحاول خبراء الآثار أن يستنطقوها لتبوح لهم بأسرارها، ترسل الكثير من القيم النابعة من هذا (الماضي) الأثري إلى (الحاضر) العماني، حتى أن منظمة اليونسكو ضمت بعض هذه الآثار إلى قائمة التراث الإنساني . كانت اللجنة هي بداية البحث العلمي في مجال البحث الأثري والتاريخي في محافظة ظفار، وإن كان ثمة جهود، جاءت في صورة أبحاث متفرقة منذ عام ١٩٨٩م وأعمال أولية قامت بها بعثة "ترانس أريبيا" ابتداءً من عام ١٩٩٠ وفي عام ١٩٩٢ طيرت وكالات الأنباء نبأ هاماً، أقام الدنيا ولم يقعدا بعد في مجال الآثار، وكان مصدره البعثة الأمريكية التي كانت مكلفة بالتنقيب عن الآثار . فقد اكتشفت بقايا مدينة غائصة في رمال الصحراء العمانية في محافظة ظفار، وأن هذه المدينة تتميز بأعمدتها العالية وأسوارها الضخمة، وأن الظن يتجه إلى الترجيح بأنها مدينة "إرم ذات العماد" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . وكانت البعثة الأثرية قد استعانت بمجموعة من صور الأقمار الاصطناعية التي التقطتها في صحراء الربع الخالي .

مدينة "إرم ذات العماد"

والذي حدث أن المسح الذي تم في عام ١٩٩٠م أثبت وجود ما لا يقل عن ثلاثة أنواع من الفخار، تم اكتشاف جدار سمكه ٩٠ سنتيمتراً وارتفاعه ٥٠

سنتيمتراً، جاء بعده اكتشاف آخر لبداية (برج) أعقبه اكتشاف برج آخر في الزاوية الشمالية الشرقية، وكونت جميعها - أي الأبراج - جزءاً من بناية هائلة، ثم تم اكتشاف بقايا طوب سقط من السقف ليجيء اكتشاف البرج الثالث في شكل مربع، كما اكتشف عدد من الغرف يبدو أنها بنيت في أزمان لاحقة، وتمكن المكتشفون - في حينه - من تنظيف صحن القلعة وبقايا باب المدخل الرئيسي، بعدها تم اكتشاف البرج الرابع على شكل حدوة حصان، ومن بعده برجان آخران، والمباني الرئيسية محاطة بسور كبير وهي عبارة عن عدد من الغرف الكثيرة .

كانت تلك هي المكتشفات الأثرية المعمارية تحت رمال منطقة (شصر) التي تقرر أن تكون مقراً للحفريات منذ السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٩٢ ومن عام ١٩٩٥ يتركز البحث حول دراسة هذا المبنى الضخم المحاط بأبراج المراقبة الستة. تصغي إلى البروفيسور يوري زارنر من جامعة ساوث وست ميسوري بالولايات المتحدة الأمريكية والذي يشارك في عمليات البحث والاستكشاف في منطقة شصر بمحافظة ظفار وهو يقول في بحث خاص حول هذه الاستكشافات : "استطعنا تحديد العصور التاريخية للمبنى من واقع الأدوات والأواني الفخارية والزجاج وأواني البخور، وتتراوح تواريخها من نحو ١٠٠ سنة قبل الميلاد حتى العصر الإسلامي (٩٠٠ - ١٤٠٠م) وأورد البروفيسور زارنر إشارة إلى أن زلزالاً خفيفاً ضرب المدينة والمبنى أدى إلى تدميرهما . ويعلق الباحثون على ذلك بأن ما يسميه البروفيسور الأمريكي بـ (الزلزال الخفيف) هو (الصيحة) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتي ذهبت بمدينة إرم .

ويتواصل البحث والاستكشاف ليتمكن المستكشفون من تسجيل وترقيم حوالي ٢٥٠٠ من الأدوات والأواني التي عثروا عليها خلال موسمين من العمل، وتتراوح بين المصنوعة من السيراميك والمصنوعة من الحجر، بالإضافة

إلى عظام حيوانات وأصداف معدنية ونماذج أدوات أخرى من العصر الحجري الحديث كالفؤوس الحجرية والأمواس والسكاكين والمرايا المصنوعة من الحجارة، ومن المعادن وأحجار للطحن، وجميعها شواهد على أن الموقع كان مأهولاً منذ العصر الحجري عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وظل يستخدم في العصر الحجري الحديث وحتى نحو عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

ولا نزال نستمتع إلى تحليل المكتشفين في محافظة ظفار بأن أول بناء رئيسي بدأ فيما بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وعندما جاء العصر الحديدي (بداية عام ٥٠٠ ق م) كان الموقع (مأهولاً) بدليل وجود أواني السيراميك المصقولة باللون الأحمر وجميعها في شكل (طاسات) منها الشكل المخزف بالنقاط، وهو النوع المتواجد في عمان منذ العصر البرونزي، وتواصل استعماله في ظفار خلال العصر الحديدي .

ومع اكتشاف أواني السيراميك، ثم اكتشاف نوع آخر من الأواني المعاصرة، مثل المصابيح المصنوعة من الحجر الرملي والمباخر والأواني المصنوعة من الحجارة وأوان أخرى، ومعظم المواد والأواني الجميلة يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد .

وقد أثبت تحليل العمر التاريخي بواسطة ما يسميه الأثريون معادلة كربون ١٤ أثبت أن منطقة (شصر) بمحافظة ظفار كانت معاصرة للعصرين الإغريقي والروماني حتى القرن الخامس الميلادي، وكانت آخر فترة تاريخية - في شصر - تعود إلى القرن الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي، ويستدل الأثريون على صحة ذلك بوجود الأواني الصينية الأصل والزجاج الملون بالأخضر كدلالة على ازدهار التجارة - على حد قولهم - ويخلص المستكشفون الأثريون إلى أن موقع (شصر) يمثل المركز الرئيسي للتجارة البرية المتجهة نحو الشمال، والتي بدأت من العصر الحجري الحديث، والتي يؤكدون ارتباطها بالنشاط التجاري

بين ظفار ومنطقة شمالي شبه الجزيرة العربية، حتى حضارة سومر في جنوبي العراق القديم . وفي عهدها الأول كانت التجارة تشتمل على العطور وخاصة اللبان، والارتباط التجاري بين ظفار وسومر يؤكد امتداد تلك التجارة نحو الغرب حتى غزة الفلسطينية ومصر القديمة . ويقول المستكشفون أن منطقة (شصر) ظلت مزدهرة خلال العصر الإسلامي عبر تجارة البخور والخيول، وكانت مرتبطة مع منطقة الربع الخالي من ناحية وساحل ظفار من الناحية الأخرى، إلا أن هذا الموقع صار مهجوراً منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وفي عدد من المواضع الأخرى تم اكتشاف موقع يبعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشرق من شصر يعود تاريخه إلى العصر الحجري الحديث، كما تم العثور على أدوات حجرية تعود إلى عصور موعلة في التاريخ، وهو ما يشير إلى أن الإنسان العماني - كما يؤكد البروفيسور زارينز - كان متواجداً فوق ترابه منذ ما بين ٥٠ ألفاً إلى ٣٠ ألف سنة ماضية .

وإلى أن ينتهي العلم من تأكيد كلمته، يظل البحث مستمراً ومستضيئاً بإشارات كثيرة من المصادر التاريخية إلى (أهل عاد) ونشاطهم في تجارة البخور، وتأكيدات على أنهم كانوا يسكنون في منطقة (أوبار) أو (وبار) وأن هذه الإشارة تأتي تحت اسم (الأحقاف) لكن لا يصعب على الباحثين اليوم تحديد جغرافية موقع الأحقاف، بأنها تقع في المناطق الواقعة شمال جبال ظفار، والممتدة إلى حدود الجمهورية اليمنية، وهي نفس المنطقة التي اكتشفت فيها البعثة الأثرية الأمريكية، مستندة إلى صور الأقمار الصناعية، أبنية ذات أعمدة ضخمة غائرة تحت رمال الصحراء .

ومع أن القرآن الكريم لم يحدد فترة زمنية معينة عاش فيها قوم عاد، إلا أنه تحدث عن معاصرتهم للنبي هود - عليه السلام - والذي يوجد قبره في محافظة ظفار أيضاً . ومع ذلك، فإن البروفيسور زارينز يقول أن الإشارة في

القرآن الكريم إلى (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) وتحديد ذلك بموقع معين في ظفار، يظل محل بحث مستمر (ظفار مسيرة الخير، وزارة الإعلام ١٩٩٥م) والبحث لا يتوقف والعلم أيضاً . ولننظر ماذا قال المؤرخون والمفسرون العرب والمسلمون عن (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) ؟

تضاربت الأقوال والروايات حول موقع مدينة (إرم ذات العماد) والتي كانت موطناً لقوم (عاد) إلا أن أبرز هذه الروايات، تلك الرواية التي جاءت في كتاب (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي) بأن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، تقع في المنطقة ما بين محافظة ظفار وامتدادها غرباً في الأراضي اليمانية، أما عن كيفية بنائها ومن هو بانيها، فتقول الرواية بأن (شداد بن عاد) كان جباراً ولما سمع بالجنة وما أعد الله فيها لأوليائه الصالحين من قصور الذهب والفضة، والمسكن التي تجري من تحتها الأنهار، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه : إني متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة، وأوكل تلك المهمة لمائة رجل من وكلائه، وتحت يد كل منهم وضع ألفاً من الأعوان، وأمرهم أم يختاروا أطيب تربة في هذه المناطق ومكنهم من الأموال .

ويقال أيضاً - في نفس السياق - بأن شداد بن عاد كتب إلى عماله الثلاثة، غانم بن علوان، والضحاك بن علوان، والوليد بن الريان، يأمرهم أن يكتبوا إلى عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيبيعوا به إليه، ثم توجه إلى جميع المعادن ليستخرج منها ما فيها من الذهب والفضة، وطلب إلى عماله توجيه الغواصين إلى البحار ليستخرجوا الجواهر فجمعوا منها أمثال الجبال، وتم تحميل كل ذلك إلى شداد بن عاد، ثم تم توجيه الحفارين إلى معادن الياقوت والزبرجد وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمراً عظيماً، وتم ضرب

الذهب ليصبح كالطوب حيث جرى استخدامه في تشييد المدينة التي رصعت حوائطها الذهبية بالياقوت والزبرجد والعقيق وجعل لها غرفاً من فوقها غرف، وكلها معمدة بأساطين الزبرجد والياقوت، ثم أجرى تحت المدينة وادياً ساقه إليها تحت الأرض أربعين فرسخاً كهيئة القناة العظيمة، ثم أمر فأجرى من ذلك الوادي سواقي في تلك السكك والشوارع والأزقة تجري فيها المياه الصافية . وأمر بطلاء حافتي النهر وجميع السواقي بالذهب الأحمر وجعل حصاه أنواعاً من الجواهر المتعددة ألوانها ما بين الأحمر والأصفر والأخضر، ونصب على حافتي النهر والسواقي أشجاراً من الذهب تتدلى منها ثمرات من الياقوت والجواهر الأخرى، وجعل طول المدينة ١٢ فرسخاً وعرضها مثل ذلك أيضاً، وقام بتسويرها بسور عال، وبنى فيها ثلاثمائة ألف قصر مفصلاً بواطنها وظواهرها بأنصاف الجواهر، ثم بنى لنفسه، بوسط المدينة وعلى شاطئ النهر قصراً منيعاً عالياً يشرف على تلك القصور الثلاثمائة ألف وجعل بابها يشرع إلى الوادي بمكان رحيب واسع ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع اليواقيت، وأمر باتخاذ بنادق - جمع بندقة وليس بندقية - من مسك وزعفران فألقيت في الشوارع والطرقات، وجعل ارتفاع البيوت في جميع المدينة ثلاثمائة ذراع في الهواء، كما جعل السور مرتفعاً ثلاثمائة ذراع أيضاً في الهواء، مفصلاً خارجه وداخله بأنواع اليواقيت وظرائف الجواهر، ثم بنى سوراً حول المدينة يضم أبراجاً للمراقبة المرتفعة في السماء، وجميعها من لبنات الذهب والفضة لينزلها جنوده . ومكث في بناء المدينة خمسمائة عام .

تواصل الرواية سردها بأن الله سبحانه وتعالى، أحب أن يتخذ الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء إلى التوبة والإنابة، فانتخب لرسالته إليه النبي هود عليه السلام، وكان من صميم قومه وأشرفهم وهو في رواية (الأنساب) كما جاء في كتاب الحموي أنه هود بن خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . دعا هود شداداً بن عاد

إلى الله تعالى وأمره بالإيمان والإقرار ببربوبة ووحدانية الله عز وجل، فما كان من شداد إلا التماذي في الكفر والطغيان، حين تم ملكه أربعمئة سنة، فأنذره بالعذاب وحذره من زوال ملكه فلم يرتدع عما كان عليه، ولم يجب هودا لما دعاه إليه، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ليخبروه بأمر الانتهاء من تشييدها كما أراد، فعزم على الخروج إليها وسط جنوده، وفي ثلاثمئة ألف من حرسه ومواليه، اتخذ مساره نحوها بعد أن خلف على ملكه بحضرموت وسائر أرض العرب - كما يقول الحموي - ابنه مرشد بن شداد الذي كان مؤمناً بهود عليه السلام، وحين اقترب شداد - وسط رجاله - من المدينة الموعودة، ودخل إلى جزء منها، عند تلك اللحظة جاءت الصيحة من السماء فمات هو وأصحابه، وغاصت المدينة في الأرض، وتلك هي الرواية الأولى .

وتجمع التفاسير حول الآية التي ورد فيها ذكر (إرم ذات العماد) في سورة الفجر، أنها ذات البناء الرفيع التي كان أهلها يسكنون بـ (الأحقاف) وهي الصحراء الممتدة بين عمان وحضرموت، وفي تفسير (التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي تلك التي لم يخلق الله مثل سكانها في قوتهم وشدتهم وضخامة أجسامهم، وكان المقصود من ذلك هو تخويف أهل مكة بذكر ما صنع الله بعباد - أهل إرم - والذين كانوا أطول أعماراً وأشد قوة من كفار مكة . وقيل أيضاً أن (إرم) هو سام بن نوح بن عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . ويقول ابن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد منهم : إرم بن سام، ومن أبنائه العمالقة والفراعنة والجبابرة، وقد جاء ذكر (عصر الجبابرة) في كتاب العهد القديم أيضاً .

والرواية الثالثة تقول إنه كان لعاد ابنان هما (شداد وشديد) وحين مات شديد خلص الأمر لشداد الذي سمع بذكر الجنة فقال : "أبني مثلها" فبنى (إرم) في بعض الصحاري . وتصف هذه الرواية (إرم) بأنها مدينة عظيمة

(قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت) وحين تم بناؤها سار شداد بأهل مملكته، فلما كان على مسيرة يوم ليلة بعث الله عليهم (صيحة) من السماء فهلكوا .

والرواية الرابعة وردت في الجزء الأول من البداية والنهاية لـ (ابن كثير) وهي تقول أن (عاد إرم) أول أمم عبدت الأصنام (كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين) فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم فكذبوه وخالفوه، لكن (ابن كثير) يؤكد بأن (عاد إرم) كانوا يسكنون الأعمدة، سواء أعمدة الخيمة أو المباني العالية، كما يؤكد طول أعمار قوم عاد وقوة أجسامهم، إلا أنه ينفي أن تكون المدينة — إرم — من ذهب أو فضة .

زيارة إلى متحف أرض اللبان

نقوش . . مخطوطات . . وثائق . . قلاع . . حصون . . حفريات . .
مسكوكات . . فخاريات . . فضيات . . أسلحة . . وكائنات بحرية . .
وتشكيلات من صخور يقدر العلماء عمرها بـ ٤٤ مليون سنة، كل ذلك وأكثر،
يحتويه متحف أرض اللبان الذي يشكل مصباحاً أثرياً يضيء بالماضي من
التاريخ، والآثار والأسرار، والإصرار على الوجود الحضاري . تحركنا في
جنبات متحف أرض اللبان بقاعتيه . . تاريخياً وبحرياً وسياحياً . . تجاذبنا
أطراف الحوار . . بشراً وفكراً وأثراً . . توقفنا ملياً أمام المقتنيات . . سؤالاً
وبحثاً وكشفاً . . سافرنا في ذاكرة الأيام . . عبر الأزمنة وعبر الأمكنة . . إنها
زيارة جديدة للتاريخ العماني تصحبنا فيها المعالم والملاحم والسمات والقسمات
. زيارة يستقطبنا لها المتحف، مثلما يقدم إبحاراً جديداً على صهواته نرتحل
ونرى ونحقق . . ونشاهد ونرنو ونرمق . . وننظر ونناظر ونحقق وندقق . عمل

موسوعي مادي قائم على الشواهد والمشاهد، أبطاله الصور الموثقة، والصورة أصبحت الأصدق إنباءً في هذه الآونة من العصر .

يتجلى (متحف أرض اللبان) أحدث معالم هذه المنظومة المتحفية بما يتسم به من شمولية في أقسامه الستة، وبما يحتويه من شواهد الجغرافيا التي لا بد أن تقترن بالتاريخ، وبما يستدعيه من عراقية تاريخية، وبما يتحلى به من قسمات جمالية، وبما يصوره من شرائح أثرية متنوعة، وبما يعرضه من رموز فكرية كامنة في جوهر الروح العمانية . يحمل متحف أرض اللبان رسالة يبثها عبر قناتين، الأولى هي "القاعة التاريخية"، والثانية هي "القاعة البحرية" والتاريخ والبحر عالمان واسعان في التكوين العماني، عبر عوامل الإنسان والزمان والمكان، وهي العوامل الثلاثة الحاكمة في تطور البشرية .

يشع متحف (أرض اللبان) بمفردات متنوعة من آثار ضاربة في عمق التاريخ، ومخطوطات نادرة لعلماء عمان، ومدن كبيرة جادلت الزمن، وملامح مميزة في تاريخ عمان، ورموز لنقلات نوعية وتحولات مضيئة في عصر النهضة الحديثة .

يضم متحف (أرض اللبان) قاعتين هما قاعة التاريخ والقاعة البحرية حيث تشتمل قاعة التاريخ على ٦ أنسام يجسد قسمها الأول جغرافية عمان وتضاريسها موضحاً امتداد سواحلها مع جزرها وخلجانها لأكثر من ٣ آلاف ١٦٥ كم، وبمساحة تصل إلى ٥٠٠ ألف و٣٠٩ كم مربع، والتي جذبت إليها الهجرات السكانية عبر التاريخ . كما يوضح القسم موقع السلطنة وما يمثله من منطقة تماس حضاري ساهمت فيه مع شعوب أخرى في صياغة الأحداث التاريخية الهامة التي شهدتها المنطقة . ويشير القسم الثاني إلى عمان في الأزمنة القديمة شارحاً مراكز الاستيطان التي تنوعت في أرجاء مختلفة من عمان منذ البدايات الأولى للحضارة الإنسانية المتمثلة بحضارة الصيد على

السواحل وحضارة إنسان العصر الحجري معرجاً على استقرار الإنسان وإتقانه الزراعة وتربية الحيوان والإنتاج البدائي لسد حاجاته من الغزل والنسيج والأواني الفخارية والأدوات المعدنية . كما تشير المعروضات بالقسم إلى العصر البرونزي الذي تمكن فيه العمانيون من استخراج النحاس وممارسة التجارة مع بلاد الجوار وبلاد الرافدين والهند والصين حيث قامت حضارة متعددة السمات كما تدل الشواهد والآثار في مختلف مناطق عمان فيما يشير القسم الثالث والذي يحمل عنوان (أرض اللبان) إلى أن ظفار أرض اللبان ظلت طوال العصور الماضية مصدراً رئيساً لإنتاج وتصدير اللبان موضحاً أن الأرض حملت مسميات عديدة مثل "أرض عاد" و"بلاد بنط" و "بلاد الشجر" . كما تشير المخطوطات بالقسم إلى الاعتقاد السائد بأن الأحقاف التي ذكرها القرآن الكريم هي الأرض التي تقع فيها ظفار والتي عرفها الفراعنة والفينيقيون والإغريق والرومان والفرس والهنود والصينيون ونعتوها بمسميات مختلفة وأقاموا معها علاقات تجارية ووصفوا ساحلها بشاطئ اللبان والبخور، وكان الإغريق يسمونه عمان . وفي القسم الرابع من قاعة التاريخ تحت مسمى "إسلام أهل عمان" يتعرف الزائر على أن أهل عمان دخلوا الإسلام طواعية بعد أن وصلهم مبعوث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن العاص، ولذلك خلد الرسول ذكراهم بدعائه "رحم الله أهل الغبراء - أهل عمان - آمنوا بي ولم يروني" كما يبين القسم دعاء الرسول (ص) لعمان بالقول : "اللهم اهدهم اللهم زدهم العفاف والكفاف والرضا بما قدرت لهم اللهم وسع عليهم في ميرتهم وكثر خيرهم من بحرهم ولا تسلط عليهم عدواً من غيرهم" .

وتذكر المؤرخات بالقسم قبول العمانيين برسالة التوحيد ومساهمتهم في نشر الإسلام عبر الفتوحات الإسلامية والمعاملات التجارية ودورهم البارز في علوم الفقه واللغة والأدب مما أعطى عمان هوية متميزة بالاستقلالية والتسامح والتي كانت من أقوى دعائم إقامة الدولة . ويمكن الإطلاع من خلال القسم الخامس

بقاعة التاريخ بمتحف اللبان على ملامح من التاريخ العماني حيث تروي المحطات التاريخية المختارة في هذا القسم جوانب مختلفة من التاريخ العماني ونماذج من الأحداث والوقائع التي كانت عمان مسرحاً لها أو كان العمانيون طرفاً فيها .

كما توضح المعروضات بسط عمان سيطرتها على أنحاء مختلفة من ضفاف الخليج وبحر العرب والساحل الشرقي لأفريقيا بحلول القرن الثامن عشر لتؤسس بذلك حضورها القوي في المحيط الهندي وأصبحت مسقط من أهم الموانئ العالمية بفضل مهارة أبنائها التجارية والبحرية ومع ظهور الآلة البخارية وحضور الأساطيل الأوروبية إلى المنطقة تراجع الأسطول العماني وتوارى دوره التجاري وانحسر معه دور عمان لفترة طويلة حتى قيام النهضة المعاصرة عام ١٩٧٠ م .

ومن خلال القسم السادس والأخير والذي يشير إلى نهضة عمان المعاصرة يمكن الإطلاع على ما حققته السلطنة من إنجازات عظيمة بقيادة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد منذ توليه زمام الحكم والنهضة العمانية المعاصرة في عام ١٩٧٠ م .

وتنقسم القاعة البحرية بالمتحف إلى ٧ أقسام حيث تشير المعروضات في القسم الأول إلى "التراث البحري" ومعرفة العمانيين بالملاحة منذ العصور القديمة ونشاطاتهم في ظل الازدهار التجاري لحضارتي بلاد الرافدين ووادي الإندوس وصولاً إلى إقامة شبكة علاقات منتظمة لقرون طويلة مع الهند والصين والساحل الشرقي لأفريقيا وبلاد حوض البحر المتوسط ثم المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية .

كما تظهر المحتويات مفردات البيئة البحرية ومهارات عمليات الإبحار ومفاصل تاريخية مهمة عن علاقة عمان بالبحر وتقف نماذج السفن العمانية

التقليدية في هذه القاعة شاهداً قوياً على المهارة البحرية والإتقان في صناعة السفن .

وفي القسم الثاني والخاص بـ "البحر" تشير المعروضات إلى ارتباط سكان عمان بالبحر الذي يعد أحد مصادر العيش وسبيلاً للتواصل مع الآخرين حيث أوجدت وسائل الصيد البدائية علاقة وجدانية بين العمانيين على امتداد شواطئها الجميلة والمتنوعة . ويجسد القسم الثالث في القاعة البحرية بناء القوارب والسفن الشراعية ومهارة العمانيين في ذلك منذ آلاف السنين حتى أن البعض منها لا يزال يستخدم حالياً في عدد من المناطق العمانية حيث تشير المعروضات إلى المواءمة بين ما وفرته البيئة العمانية من إمكانيات وما تم الحصول عليه من مواد مستوردة من السند وبلاد الرافدين . وتضم القاعة البحرية قسماً رابعاً بعنوان "الإبحار" يشير في معروضاته إلى أهمية الملاحة الناجحة والطرق المستخدمة فيها بمعرفة مسارات النجوم وحركة الشمس والقمر لتحديد الموقع والإلمام بقراءة تجمعات السحب ولون الماء والأمواج والاستعانة بالطيور في تحديد اتجاه اليابسة حيث يعرض القسم أجهزة قديمة وحديثة تساعد في الإبحار . ويبرز القسم الخامس "التجارة" حيث تشير المعروضات إلى اللبان الذي كان ينقل عبر موانئ سمهرم والبليد وريسوت والتعريف بميناء صحرار الذي كان مصدر تصدير النحاس للحضارات القديمة والإشارة إلى تبادل تلك البضائع بالتوابل والعاج والحريز والخشب والذهب حيث تشير مخطوطات ووثائق صينية إلى أن أول البحارة العرب الواصلين إلى الصين كانوا من عمان عام ٧٥٠م كما أن أحمد بن نعمان الكعبي كان أول مبعوث عربي يصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠م وأن السلطان سعيد بن تيمور كان أول حاكم عربي يزور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨م . ويجسد القسم السادس "واقع البحر الافتراضي" ويمثل نموذجاً للسفينة البغلة وهي إحدى أنواع السفن الكبيرة التي كانت تستخدم للرحلات البعيدة من عمان إلى

زنجبار وممباسا حيث يتم من خلال القسم التعرف على المخاطر والمعاناة في مثل هذه الرحلات واللحظات التي تعبر عن فرحة العودة إلى الوطن . ويعبر القسم السابع والأخير عن النهضة، وهي مرحلة اختراع المولدات البخارية واستخدامها في السفن، الأمر الذي أدى إلى منافسة كبيرة بين الدول أدت بدورها إلى انكفاء الأسطول العماني المكون من السفن الشراعية وتراجعها في تلك المرحلة وانحسار المستوى المعيشي وصولاً إلى دخول عمان في مرحلة جديدة مع شروق فجر النهضة عام ١٩٧٠م، حيث تفاعل العمانيون لبناء وطنهم والاستفادة من معطيات العصر الجديد كبناء الموانئ الحديثة واقتناء السفن المتطورة لسد حاجاتهم المعاصرة .

يقول معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار السلطان قابوس للشئون الثقافية : إن متحف أرض اللبان يشكل إطلالة شاملة على عمان بمختلف مناطقها عبر الأزمنة، ويقدم المتحف موجزاً لتاريخ عمان من خلال قاعتين، الأولى للتاريخ ونماذج من الشواهد الأثرية عبر العصور، والثانية تحتوي على نماذج مصغرة للسفن العمانية وموجز لعلاقة العمانيين بالبحر . كما يوفر المتحف للزائرين والباحثين ملخصاً لمسيرة عمان عبر تاريخها الطويل، والذي لم يكن متاحاً بطريقة علمية قبل بزوغ فجر النهضة المباركة بقيادة السلطان قابوس بن سعيد، الذي أطلق مسيرة التنمية الشاملة والمستدامة في كل الميادين عام ١٩٧٠ تفاعلت من خلالها عمان مع محيطها الإقليمي والدولي في إطار التعايش السلمي بين الدول، وتبادل المصالح بين الأمم، على نهج ثقافة التسامح والسلام .

وحول اختيار منظمة اليونسكو لموقع أرض اللبان بمحافظة ظفار يقول أنها موطن شجرة اللبان وبلاد المنشأ والتصدير . ووضعها على قائمة التراث العالمي، ولذا فإن هذا الاختيار يشكل قيمة مضافة لكنوز عمان الأثرية في منظومة التراث

الثقافي والطبيعي التابعة لليونسكو استناداً إلى حيثيات علمية ومعايير عالمية : المنطقة الداخلية قلعة بُهلاء وضعت على قائمة التراث العالمي عام ١٩٧٨م وفي منطقة الظاهرة، مواقع بات والخطم ووادي العين عام ١٩٨٨م وفي محافظة ظفار مواقع أرض اللبان وهي : مدينة البليد، ومدينة خور روري / سمهرم، وشصر / ويار، ووادي دوكه (حيث تنمو أشجار اللبان) . وقد تم تسجيلها باسم "طريق تجارة اللبان" عام ٢٠٠٠م ثم أعيد تسجيلها عام ٢٠٠٥م تحت اسم "أرض اللبان" كما اعتمدت منظمة اليونسكو في قائمة التراث العالمي، نظام الأفلاج العمانية عام ٢٠٠٦، حيث اختارت خمسة أنواع من هذه الأفلاج كنماذج للموروث الحضاري العماني وهي :

- فلج الجيلة بولاية صور
- فلج دارس وفلج الخطمين بولاية نزوى
- فلج الميسر بولاية الرستاق
- وفلج الملكي بولاية إزكي .

في رحاب شجرة اللبان

هنا البحر . . بخيراته، التي تفيض وتستفيض، وخبراته التي لا تغيض في وجدان الناس في جنوب عمان، وطيباته وما أكثرها وتكاثره، ومغامراته التي لا تنسى (مع) الناس حين يعرفون أسرار تقلباته، و(ضدهم) أحياناً حين يكون الحوار مع الأمواج عنيفاً . . هنا الجبل . . بعناده الذي يلين أحياناً، وصلابته التي تلقي بظلالها الرقيقة في عنفها، والأصيلة في عنفوانها، وهي تسمح على استحياء للون الأخضر أن يهزم اللون الأصفر، فيتوارى اللون الأسود خلف ستائر الأشجار والاختضار والازدهار .

هنا السهل بانسيابيته رغم أنف الصحراء الممتدة والممدودة. كأنها بلا قيود ولا حدود، وقد عنت وجوهها للعمار، ونزعت أقنعتها للإعمار، واندثرت وحشيتها بالتعمير إلا قليلاً في جنبات ظفار. هنا الهواء . . نتنسه بقوانين الاستشعار عن بعد . والأثير ينقل شذى الأشجار التي لا تموت واقفة أو منحنية . وأنى لها الانحناء بين كل هذا الشموخ الطبيعي، والعبير منبعث من شجرة اللبان، التي هي عنوان عماني جنوبي يتجلى بالجمال والشهامة، والأصالة والحضارة .

إنها ثنائيات التكوين يجري بينها الجدل، والحياة قصيدة جدلية من الثنائيات، وحوارية بين المتقابلات . على جبال عمان تحطمت الشيوعية، فكانت عمان كلها، بمثابة الصخرة التي طأطأت عليها رأس الشيوعية قبل سقوطها المدمر بعشرين عاماً وتلك قصة يجب أن تروى للأجيال والتاريخ، وسنورها في مقام آخر . ومن سهول عمان، تجلت شجرة اللبان جسراً حضارياً، لا يزال ممتداً في التاريخ والجغرافيا والحضارة والحاضر، والمستقبل أيضاً، وتبوح الشجرة فيها بكثير من الأسرار من قلب الجبل القاسي، تولدت نظريات تلقائية في التربية، يمارسها أبناء ظفار، الذين لا تزال خيوطهم مربوطة بنجوم السماء في الجبال رغم أن الأجيال الجديدة تتحاور مع العصر في الطب والهندسة والتكنولوجيا .

حتى وأنت تنظر إليها من بعيد تراها شجرة غير عادية . . لماذا؟ إنها تتوسط قطعة من الصحراء التي بدورها تبسط يدها لعطاءات شجرة اللبان، الخير منها يتساقط، فتلتقطه الأيدي بحب واحتواء، والسر فيها يتغامض فيغري على السفر في ذاكرتها القوية، المضمخة بروائح عرش النبي سليمان، والمتجلية بإقامة الصلوات في أماكن العبادة للكثير من الديانات والمستقطبة اهتمام العلماء ليشهدوا لها بمكنونها العلاجي .

نقرأ في كتاب "تاريخ مصر" للمؤرخ "برستد" أن كرات من هذه الثمرة وجدت في مقبرة توت عنخ آمون، وأن استخدام بخور اللبان في الأغراض الدينية ظهر في مخطوطات المصريين القدماء أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، وكانت حملات برية ترسل إلى ظفار العمانية . بعد القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . إلا أن استخدام هذه (الثمرة العجيبة) في مراسم دفن الموتى لم يظهر بجلاء إلا بعد اكتشاف علم التحنيط .

ورواية تاريخية تشير إلى أن ثمرة شجرة اللبان ساهمت في بخور عرش نبي الله سليمان، كما جاء ذلك في أنشودة له، ورواية أخرى تؤكد ورود إشارات لها في إنجيل (متى) ويقول مؤرخون أن هذه الثمرة قدمت هدايا للسيد المسيح عليه السلام وتشير سجلات (بليني) التاريخية إلى أنه في عام ٦٦ بعد الميلاد استطاع الإمبراطور (نيرون) أن يحرق كمية من اللبان تفوق كل إنتاج جنوبي شبه الجزيرة العربية في عام واحد، وكان ذلك في مناسبة دفن جثمان زوجته (بربارة) .

ولا يزال اللبان العماني يفوح بروائح السرية في البيوت والمنازل، حتى في الفاتيكان والكنائس الرومانية أثناء التجمعات الكبرى لصلواتهم، من منطلق الاعتقاد أنه يطرد الشياطين والأرواح الشريرة . وهذه الشفرات السرية للبان العماني، استقطبت العلم والعلماء قديماً وحديثاً، حتى أن العالم الكبير (ابن سينا) يؤكد أنها تداوي الكثير من الأمراض مثل أمراض البطن والقلب والربو، كما أنها توقف النزيف الداخلي والخارجي وتعالج أورام الطحال وآلام المفاصل، وأن مشروب اللبان الظفاري يزيد من جلاء الذهن وصفائه ويذهب بالنسيان . وفي العصر الحديث يستعين الطب باللبان، بل إن دولاً صناعية كبيرة تطلب اللبان لإدخاله في صناعة الأدوية والزيوت والمساحيق والعطور والشموع .

وفي رحاب شجرة اللبان يتم استثمار عطاءات هذه الشجرة العجيبة، بل هي تمثل واحداً من مصادر الدخل . ويتبدى التواصل بين الحاضر مع الحضارة، حين نخبرنا التاريخ أن القوافل البرية كانت تخرج من ظفار محملة باللبان حتى تصل إلى فلسطين (غزة) مروراً بشمالي اليمن، وهي المنطقة التي كانوا يطلقون عليها (سلطنة اللبان) وكانت الرسوم التي يتقاضاها أهل هذه المنطقة من قوافل اللبان التجارية، تشكل دخلهم القومي، وكانت المسارات متعددة ووعرة، لكنها تهون من أجل سر الشجرة المثيرة والتي لا تنبت إلا في عمان على الرغم من أن الحركة تبدأ من ظفار مروراً بالساحل الفلسطيني الذي يحملها إلى روما القديمة، كان ذلك قبل أكثر من سبعة آلاف عام (مسيرة الخير، وزارة الإعلام، ظفار ١٩٩٥).

بث الأقمار الخضراء

أحدث في شجرة اللبان والرجل الأسمر يجري الحوار معها . وأستمع إلى مفردات الحوار بين الرجل والشجرة . ما إن تميل درجة الحرارة للارتفاع في أوائل شهر أبريل من كل عام، حتى يقوم المشتغلون بجمع الثمار (بتجريح) الشجرة في مواضع متعددة، تتراوح بين عشرة وثلاثين موضعاً - حسب حجم الشجرة - وبواسطة أداة صغيرة يسمونها (المنقف) وهي آلة ذات يد خشبية ورأس حديدي حاد مستدير الشكل .

الضربة الأولى للشجرة يسمونها التوقيع ويقصد به كشط القشرة الخارجية لأعضائها وجذعها، ويتلو هذه الضربة نضوج سائل لزج حليبي اللون، سرعان ما يتجمد فيتركونه هكذا لمدة ١٤ يوماً تقريباً، بعدها تبدأ المرحلة الثانية من استخراج الثمار . أما السائل الذي ينضج فيتم كشطه إلى الأرض، وعندها تبدأ عملية التجريح الثانية .

والجمع الحقيقي يبدأ بعد أسبوعين من "التجريح الثاني" حيث تنقر الشجرة للمرة الثالثة، وفي هذه الحال، ينضح السائل اللبني ذو النوعية الجيدة، والذي يعد تجارياً من مختلف الجوانب، ويكون لونه مائلاً إلى الصفرة، ثم يبدأ في التجمد إما على الشجرة نفسها أو يسقط منها على الأرض . إذا كانت الشجرة غزيرة الإنتاج، وإذا كانت الضربة الأولى يسمونها "التوقيع" فالضربات التالية يطلقون عليها اسم "السعف"، على أن ضرب أشجار اللبان لا يتم بشكل عشوائي، فهو يحتاج مهارة فنية وخبرة خاصة، فقد يؤدي الخطأ في عملية الضرب إلى إصابة الشجرة بـ "العقم" ومن ثم يحذرون من إصابتها في اللب .

ويستمر موسم الحصاد لمدة ثلاثة أشهر، وأحياناً ما يمتد من أبريل إلى أكتوبر من كل عام، حيث يتم تجميع هذه الثمار بشكل منتظم، وتجمع الثمار في سلة مستديرة من "الخصوص" يسمونها باللهجة المحلية "قفير" . ويبلغ متوسط إنتاج الشجرة الواحدة من الثمار نحو عشرة كيلوجرامات تقريباً، وهناك أشجار أخرى تنتج عشرين كيلوجراماً . ويصل ما تنتجه محافظة ظفار في العام الواحد إلى سبعة آلاف طن تقريباً وهو ما يمكن تقدير قيمته المبدئية بحوالي مائة مليون دولار . ويستخدم سكان محافظة ظفار ثمار أشجار اللبان في ماء الشرب، حيث يضعون ثلاثة فصوص في قذح الماء لتساعد على "الإدرار" كما أنها تجعل الماء بارداً ونقياً في الصيف .

ومن بين التقاليد الراسخة منذ القدم في محافظة ظفار، ما يحدث عند الزواج، حيث يعدون المباخر الضخمة من الفخار، ويحملونها - عادة - فوق الرؤوس، يملأونها بكمية من الرماد توضع فوقه جمرات من الخشب المحترق، ثم يلتقى عليها اللبان ليزوب في النار ويتصاعد البخور برائحته المحببة، ويعطر بخور اللبان رقصة "الهبوت" التي تتم على شكل دائرة كبيرة قطرها حوالي

مائة متر، توضع في وسطها المباخر المتوهجة . وهناك استعمال آخر لثمار اللبان حيث تكون "المبخرة" على مقربة من مهد المولود لاعتقادهم بأنها تعطر الغرفة وتطرد الروائح الكريهة . ومن العادات الثابتة إطلاق البخور على باب المنزل في الصباح الباكر لجلب السعادة للأسرة طوال ذلك اليوم، ومن ثم يحرصون على وجود قدر من هذه الثمار في المنزل تصونه من الأذى وتدفع عنه المضار من الهوام .

حوار لباني عربي أمريكي

وهذا حوار من نوع آخر بين اثنين من مؤرخينا العرب المشهورين ومؤرخ معاصر بجامعة ساوثوست ميسوري الأمريكية . تقول أوراق الذاكرة الجمعية أن سكان ظفار عرفوا شجرة اللبان منذ أقدم العصور، ولكن استخدام ثمارها - بشكل واسع - لم يبدأ إلا في العصر الحجري الحديث (قبل حوالي ثمانية آلاف عام) فقد سلكت قوافل التجارة المحملة باللبان الظفاري خلال العصر الإسلامي نفس الطريق التي كانت مستخدمة منذ العصر الحجري الحديث، وهي التي أنشأها العرب والرومان مهتدين بنفس الطرق القديمة، وكانت طرقاً معبدة يعود تاريخها إلى عصور قديمة تتعرض للإهمال بعض الوقت ثم يعاد إصلاحها للاستخدام في أزمان تالية .

يذكر ياقوت الحموي أن العرب كانوا يعبرون الربع الخالي - بصورة دائمة - في رحلة قد تمتد خمسة وأربعين يوماً من منطقة (وادي الدواسر) شمالاً إلى حدود منطقة المهرة في الجنوب . وقد ظل العرب يذكرون الطريق من ريسوت بصلالة، إلى بغداد - عبر الربع الخالي - حتى ثلاثينيات القرن العشرين، ويشير المؤرخ (ابن المجاور) إلى وجود طريق بين مرباط وطاقة القديمة يمتد إلى الكوفة، وأن هذا الطريق يتفرع منه جانب آخر إلى واحات الأحساء

والطائف، وهو الذي كان العرب يتخدمونه لجلب الجياد ومقايضتها بالعطور وغيرها من السلع الفاخرة .

يضاف إلى ذلك أن أول النقوش الكتابية في حضارة سومر ويرجع تاريخه إلى نحو العام ٢٣٠٠ قبل الميلاد، وهي الفترة المعاصرة للعهد الأخير من العصر الحجري الحديث في منطقتي ظفار والربع الخالي، وقد تم العثور عليه مكتوباً على عدد من الألواح السومرية سجلت عليها كلمة (بذور) وفي سجلات أخرى عبارة دقيقة "البذور المستخرجة من أشجار اللبان" وهناك تعبيرات أخرى معناها : البخور المطلوب للحكام والقساوسة، وتنبتنا الكتابات الأولية أن هذا البخور كان يقاس بالوزن، وكانوا يخلطونه بالزيت أو الشحوم ويستخدمونه لأغراض خاصة في الطقوس الدينية والعلاج والعطور .

وفي ضوء ذلك يؤكد البروفيسور يوري زارنز في بحثه الذي أشرنا إليه قبل قليل، حول الاكتشافات الأثرية الحديثة بمحافظة ظفار، أنه من واقع النقوش الكتابية تبين أن اللبان كان يتم تصديره إلى بلاد (سومر) ومناطق العراق القديم عن طريق البحر عبر موانئ في البحرين وشرقي الجزيرة العربية، كما أن الاكتشافات الأثرية الحديثة، التي تعززها صور الأقمار الصناعية قد أثبتت قيام هذه التجارة عبر الطرق البرية (مسيرة الخير، وزارة الإعلام، ظفار ١٩٩٥) .

وقال البحر للأقمار

ونفارق أشجار اللبان التي تتعاون معها أشجار النخيل، في بث الأقمار الخضراء في جبال ظفار، لنركب البحر . والبحر أحد مكونات الشخصية العربية، ونحن نغفل كثيراً عن جوانب التكوين العربي حين نغفل الحديث عن البحر، وتزاوج الثقافات والحضارات من خلال تماوج شطآنه، يقول المؤرخون أنه من قديم جداً والسفن العربية تمخر البحار والخلجان للصيد

والتجارة والأسفار، ومن قديم جداً واللبن والبخور والصندل من منتجات الجنوب العربي ومن صادرات السفن العربية عبر البحار السبعة تغزو معابد أوروبا والشرق وتعطر الحضارة الآشورية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية ومن قديم جداً وحرير الصين وأخشاب الهند ولبن عمان ولآليء الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم .

وحديث البحر عذب وعذاب وعذوبة، عالم مثير، ملكوت غامض، دنيا من الأسرار، خبايا وخفايا وحكايات، مصدر الخير، وملجأ التأمل، ولعبة الصبر الطويلة، فكم من مدن ابتلعها، وكم من حضارات غرقت فيه، وكم من أمكنة غاصت في قاعه واستقرت في قراره . ولأهل ظفار مع البحر شئون وشجون، منذ الآباء الأوائل الذين ركبوا البحر حتى ارتبطوا به وارتبط هو أيضاً بهم، وأصبح البحر أحد مفاتيح الشخصية العمانية . والعماني والبحر . .

عنوان مثير لقصة أمة، وحياتها المليئة بالمغامرة والتحدي، وخوض التجارب وركوب الصعب، حتى أضفى البحر كثيراً من صفاته على الإنسان العماني، وجعله يخفض جناح الليونة لتتجاور مع الصلابة المنبعثة من الجبل . في عام ١٩٥٩م اختطف البحر عشرات من الناس في ظفار من المراكب الشراعية في بداية الخريف، وهم متجهون إلى مسقط، سعيًا للرزق في بلاد الله الواسعة، حين شاءت الأقدار أن تتأخر هذه المراكب بعضاً من الوقت عن موعدھا لتتلاعب الرياح بالأمواج، وتقع الكارثة وتطال كل بيت في ظفار . لكن الأيام طوت تلك الواقعة المؤلمة، ليقع اللوم على الرياح، وليبقى البحر فياضاً بالعتاء، وليظل بريئاً وأمواجه، أيضاً . وفي أجواء البحر ومغامراته وخبراته، يتجلى الحديث عن الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام، وهي تبهر وترسو على الموانئ . والموانئ في لغة الوجدان هي رمز للوداع والاستقبال، والتلاقي والفرق، والأشجان والأشواق، وهي في لغة الاقتصاد منافذ ونوافذ، واستثمارات ومنافع .

استغراق في ثمانية كنوز

في مياهها . . أعداد لا حصر لها من الأسماك التي تشكل ثروات بحرية فياضة . وفي سواحلها أشجار كثيفة لا تعبأ بكون المياه عذبة أم ملحة . وعلى نباتاتها عشرات الأنواع من الطيور المحلية، والمهاجرة، ثماني محميات أو ثمانية كنوز، تشكل في مجملها محمية كبرى متقاربة الملامح والمعال، تقول الكثير عن تكويناتها ومضامينها ودواخلها، وتبوح بالمثير من الأسرار والبحر والتاريخ والأرض التي لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا إلا بالحوار العلمي والعمل الذي يراعي جمالياتها ويستثمر خيراتها وخبراتها .

هنا . . تتعانق الآثار مع الأخوار، على طول ساحل محافظة ظفار . هنا . تتجاور الموارد الطبيعية مع العطاءات الحيوية، وتعززها المواقع الأثرية والشواهد التاريخية، لتجعل من محميات الأخوار نقاط اجتذاب، وكنوز استقطاب، تمنح المنطقة خصوصية فريدة، تتجلى بالمقومات التي تؤهلها كينابيع خير، ومصادر حركة للسكان الذين يؤثرون العيش والإقامة بالقرب منها، وكموارد قادرة على العطاء إذا ما تم استثمارها بما يتناغم مع طبيعتها، ويتكافأ مع ما تحويه من ثروات لا تنضب مادام الحفاظ عليها مستمرا، والمحافظة عليها دائمة، خاصة بعدما أعلنت كمحميات بتاريخ ١٩٩٧/٦/٢٨م . وتتراوح مساحة الأخوار من بضعة هكتارات إلى ما يزيد على مائة هكتار في الأطراف الشرقية لجبل القمر، ينساب حول المغسيل، محمية هامة، تبدو أهميتها من مساحتها التي تبلغ أكثر من نصف كيلومتر مربع ويمتد طولها ٧٠٠ متر، وامتد عرضها ١٥٠ مترا . هذه واحدة . . والثانية أن الخور تفصله حواجز رملية عريضة عن البحر، الأمر الذي يتيح الفرصة الطبيعية للنباتات والأعشاب لكي تنمو بكثافة، وأن تنتشر على كافة جوانب الخور، هذه

الكثافة من الغطاء النباتي تشكل واحة جذب للطيور على طول الساحل الغربي لمحافظة ظفار، وهذه هي الميزة الثالثة لخور المغسيل، وهي ميزة جعلت إدارة المحمية تقوم بتسيوره حماية ورعاية وعناية . حين تتجاوز الأطراف الشرقية لمدينة صلالة، يستوقفك على مدد النظر خور الدهاريز الكبير، الذي يمثل عقداً طبيعياً في منظومة محميات أخوار محافظة ظفار . مساحة تبلغ ٠,٦ كيلومتر مربع، ومياه مفتوحة ممتدة بطول كيلومتر تقريباً، تضم مجموعات متنوعة من الأسماك، ترتبط بصفة منتظمة بمياه البحر من خلال الحاجز الرملي، ومصب موسمي في البحر بطول خمسين متراً، ونباتات كثيفة من القصب يتراوح طولها ما بين ثلاثة إلى عشرة أمتار، ومواقع تألفها الطيور لتتكاثر فيها خاصة المساحات التي ينمو فيها القصب . وقد تم حتى الآن تسجيل ما يزيد عن (٨٠) نوعاً من الطيور .

يتجلى مفتاح شخصية هذه المحمية في البعد الأثري، ومن ثم تستمد محمية خور البليد قيمتها من مدينة البليد الأثرية الأولى من نوعها في السلطنة حيث أنها تجمع بين شواهد التاريخ، والاستمتاع بالموارد الطبيعية، بمساحتها التي تبلغ كيلومتراً مربعاً، ويلفها حزام أخضر هادئ يزيد مدينة صلالة بهاءً وجملاً .

تلكم هي محمية (خور عوقد) التي تنهادى بأخضرارها وازدهارها داخل حدود صلالة، محمية أنيقة بمساحتها الصغيرة نسبياً، التي تستقطب العديد من الطيور التي تتكاثر فيها فتمنحها حيوية وجمالاً وحركة وصوراً متنوعة الألوان تبهج الناظرين وتسرع السائحين . ساعة أن تركب الطريق المتجه من صلالة إلى ريسوت، يستقطب عينيك هذان الخوران، ففي غمضة عين يجذب حواسك غطاء نباتي يكسو المنطقة باللون الأخضر، المنبعث من أشجار القرم، والتي من فرط كثافتها وجمالها وكثرتها استمدت المحمية اسمها منها، وإزاء

هذه الميزة الطبيعية، أولتها الإدارة كل الأهمية، ليتم تخصيصها كمحمية ذات عوائد سياحية واقتصادية واجتماعية .

وحين تبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً شرق مدينة صلالة، وعلى جانب الطريق المؤدي إلى ولاية طاقة، ترى سوراً كبيراً يحيط واحدة من أهم المحميات في محافظة ظفار، إنها محمية (خور صولي) ذات المساحة التي تبلغ حوالي كيلومتر مربع، والتي تقع في مستجمع مياه أمطار وادي هشيم ووادي فضليت . ونظراً لأهمية هذه المنطقة، قبل إعلانها محمية، فقد أنشئ هذا السور، حماية أيضاً لبعض المواقع الأثرية الهامة، وقد كشفت الدراسات الميدانية أن خور صولي من الناحية البيولوجية يعد أحد أهم الأخوار بالمنطقة، وأكدت النتائج العلمية البحثية أن الخور يحتوي أعداداً كبيرة من أنواع اللاقريات المجهرية ما يزيد على (٤٠) نوعاً، بينما تبلغ الطيور (٦٦) نوعاً، والأسماك (٣٦) نوعاً، وأما النباتات فيزيد عددها على (٧٠) نوعاً، ومن هنا تكتسب محمية خور صولي أهميتها ذات الأبعاد المتنوعة، والتي تجعل منها محمية ذات وضعية مميزة، تبشر بعطاءات كثيرة .

وعلى بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من صلالة، وغرب ولاية طاقة، تقع محمية خور طاقة التي تبلغ مساحتها (١٠٧ كيلومترات مربعة) وترتبط المحمية بالبحر، نتيجة تدفق المياه العذبة إليها من أحد الينابيع، حتى ليبلغ تدفقها ١٤٠ لتراً في الدقيقة، وتساعد هذه الميزة كثيراً في نمو النباتات التي تعتمد على المياه العذبة، كما تساند النباتات التي تنمو وسط مياه عالية الملوحة . أما أهم ما يتميز به الخور أيضاً، فهو وجود لسانين بحريين متوازيين في اتجاه البحر، يمتد كل منهما كيلومتراً تقريباً .

أما محمية (خور روري) فهي تضم واحداً من أكبر الأخوار التي تم تخصيصها كمناطق محمية على طول ساحل صلالة، حيث يصل طوله إلى ٢,٥

كيلومتر، وعرضه ٤٠٠ متر وتبلغ مساحته الكلية ٨,٢ كيلومتر مربع وتستمد المحمية قيمتها وجدواها من الموقع الأثري المشهور والمعروف باسم (مدينة سمهرم) التي تطل على ضفاف مياهه، ويتميز بمناظره الطبيعية التي تتأثر بموسم الخريف فتتناغم معه في منظومة الجمال، وهذا هو البعد السياحي للمحمية . هذه المنظومة من المحميات والأخوار الطبيعية، تشهد عمليات تحديث وتطوير، لتؤتي عطاءاتها أكثر من ذي قبل، على ضوء الإمكانيات الحديثة والتقنيات المستمرة، بما يتناغم مع متطلبات المجتمع الذي يأخذ بأسباب العلم، ويراعي العادات والتقاليد، ويحرص على المضي المستمر في مسارات التنمية الشاملة التي تنهض دائماً متكاملة .

د. مجدي العفيفي